

النُّجْمَةُ الهَلَالِيَّةُ فِي التَّارِيخِ وَمَآثِرُهَا فِي الْأَدَبِ الْمَغَارِبِيِّ الْقَدِيمِ

د. فتحي محمد

جامعة سيدي بلعباس

تقديم

دخل الفاطميون المغرب القديم في نهاية القرن الثالث الهجري (296هـ)، تقيّة مستعنيين بقبيلة كتامة باعتبارها أقوى القبائل البربرية عدداً وعدة وأقواها نفوذاً في بلاد المغرب، وأشدّها شوكة في حلق دولة الأغالبة العضد الأيمن للعباسيين في هذه البلاد، سلك الفاطميون سياسة الملاطفة والمداراة مع القبائل في التبشير بالمذهب الشيعي الإسماعيلي، وفي ظرف قياسي أزاح الفاطميون الدويلات المغربية (الأغلبية، الإدريسية، الرستمية) المتدافعة سياسياً ومذهبياً، فوحدوها تحت رايتهم وأسلمت لهم القيادة رغبة ورهبة، وفُصل المغرب عن مرجعيته السنية الماثلة في الخلافة العباسية، وبذلك أضحى العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث خلافات، العباسية في بغداد والأموية في الأندلس والفاطمية بالمغرب والتي تسعى لتوحيد العالم العربي والإسلامي تحت رايتها.

استجدّ الفاطميون عاصمة لهم سنة أ سموها المهديّة¹ نسبة إلى المهدي وبناء عاصمة جديدة يعني بداية عهد جديد وثبتاً لدعائم التواجد الشيعي في المغرب غير الدائم، طرَح المعز لدين الله أمامه خيارين التوجه شمالاً نحو الأندلس أو شرقاً تجاه مصر، فاختار الثاني مفضلاً الموقع الاستراتيجي والظرف السياسي، دخل قائده جوهر الصقلي مدينة الاسكندرية دون مقاومة، لأن المصريين كانوا مستائين من حكم بني العباس فاستبشروا بقدوم الفاطميين، آملين فيهم تحسين ظروفهم المعيشية، فأضحت مصر تعيش ثنائية مذهبية، شيعة وسنة، كان لهذا الفعل أثره الفاعل في الحراك الأدبي والشعري، إذ هنا ابن هانئ الأندلسي ولي نعمته الخليفة المعز لدين الله بقصيدة طويلة جاء فيها:

وما ضرَّ مصرًا حين أَلَقْتَ قِيَادَهَا — إِلَيْكَ أَمْدٌ النَّيْلُ أَمْ غَالُهُ جَزْرُ؟

فحسبكمُ يا أهل مصر، بعدله — دليلاً على العدل الذي عنه يفتر²

وقبل رحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر أوصى على ملكه بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي فولاه أمر إفريقيا والمغرب، وبانقسام الدولة الصنهاجية، أعلن ابن حماد صاحب القلعة بالمغرب الأوسط خلع طاعة الفاطميين ودعا لخلفاء بني العباس، وأعاد ولايته للمذهب السني، وبتولي المعز بن باديس رابع أمراء صنهاجة مُلك القيروان (إفريقيا) انتفض هو الآخر دعوة العبيديين (الفاطميين) (جملة وراجع دولة آل عباس، وأخذ في حمل الناس على اتباع المذهب المالكي خصوصاً وأن القيروان اتخذها فقهاء المذهب محطة عبور إلى الأندلس، فأثرت في بقية الحواضر التي ارتبطت بالخلافة الشرعية في بغداد.

ومع هذا التوجه السني أخذت المظاهر الدينية والأدبية المناصرة للفاطميين في القيروان وبلاد المغرب في الاختفاء وصار المذهب الشيعي إلى الزوال تدريجياً من هذه البقاع، على الرغم من بعض المحاولات الفاشلة التي قام بها الموحدون لتثبيت المذهب في هذه البقاع، لأن المعز كان الحصن الحصين والعاصم الأمين لمغربنا من شرور فتنة الطائفية والنعرات المذهبية وبذلك تميزت الحياة الثقافية والأدبية المغربية في بعض جوانبها عن المشرق العربي، إلا أننا لا نغفل خدمة الفاطميين للأدب العربي مشرقاً ومغرباً.

الفاطميون والزحف الهلالي

لما تراخى حبل الولاء والإخلاص ووهنت قوته مع الجيل الجديد الذي لم تعد ترضيه التوجهات الروحية والسياسية للفاطميين ولم يأنس لسبلها ، حينها أدرك الفاطميون خطورة الموقف الصنهاجي على ملكهم بالمغرب ، فترل الخليفة (المستنصر) عند رأي وزيره الحسن بن علي اليازوري باصطناع قبائل بني هلال وحملهم على الزحف إلى المغرب لتشتيت ملك غرمائه بأيسر السبل ، وعند النجعة الأولى كتب اليازوري إلى المعز ، قد أنفذنا إليكم خيولا فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً³ ، وقد يكون في هذا تناص مع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تحريض الناس على الزحف إلى العراق: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على سبيل النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها⁴ يتحد النصارى في التحفيز على الهجرة والتملك ، لأن الصحارى العربية بيئة طاردة كثيراً ما تضطر القبائل إلى الارتحال من مواطنها وانتجاع مواطن أخرى ، بغية الكسب والتملك تحسناً لظروفها المعيشية والاستقرار دون عودة .

يختلف النصارى في حملتهما الدينية ، فمبتغى عمر رضي الله عنه بناء مجد جديد في بلاد الرافدين والتغيير من ديمغرافيتها كي تنفتح الجزيرة العربية بتعاليمها الجديدة على الهلال الخصيب وبلاد العجم (فارس وغيرها) ، والمستنصر غرضه النكال والانتقام من غرمائه الذين شقوا عليه عصا الطاعة والولاء ، والتخلص من عنصر صعب المراس في ملكه الجديد ، غير أن الفاطميين عززوا التواجد العربي السني في المغرب الرافض للمذهب الشيعي في بعده الروحي والسياسي ، وبذلك انفرط هذا الصقع من عقدهم فثائياً ، ولعل الصنهاجيين كانت استراتيجيتهم أعمق وسابقة لأوانها ، فإنهم جنّبوا بلاد المغرب الطائفية المذهبية وما ينجر عنها ، فلله الحمد والمنة ولأسلافنا العزة والرحمة .

الأصول الهلالية

يرجع أهل التاريخ ومنهم ابن خلدون أصول القبائل الهلالية إلى نجد بشبه الجزيرة العربية ، نزحوا إلى مصر في حروب القرامطة واستوطنوها ، أما التي توافدت على المغرب فهي أخلاط من القبائل ولا يمكن الإتيان عليها كلها أو حصر توزيعها الجغرافي في هذا الصقع المتباعد الأطراف في هذا العمل المتواضع ولطول زمن الرحلة الذي دام خمسة عقود⁵ ، ومن أشهر هذه القبائل سليم وهلال والأبجج ورياح وزغبة وجشم وقرة وعدي ... وهي مصرية عدنانية تجتمع على أصل عريق هو "قيس عيلان" أو قيس بن عيلان، كانوا يتعارفون باسمه ويتنادون باسمه ويستغيث بعضهم ببعض باسمه أيضاً⁶ ومما لا يعوزه الريب أن قبائل أخرى رافقت القبائل المذكورة أعلاه أو تبعتها في فترات قد تشترك أولاً تشترك معها في القربى ، والمثير للسؤال فلما ذا حمل الكل اسم بني هلال على الرغم من أن سليماً أعرق من هلال وأشدّها شكيمة ؟ قد يعود ذلك في منظورنا لسلاسة الاسم وسهولة نطقه ، ولأن الرئاسة كانت فيهم عند النفرة الأولى وهذا هو الأرجح في منظورنا .

المسيرة الهلالية

خرجت هذه القبائل من مصر منذ منتصف المائة الخامسة للهجرة بدافع اقتصادي بحث ، وهي تتحرق شوقاً إلى بلاد المغرب التي لم يكن يغيب عن أذهانها ما تنعم به من خصوبة أرضها ورقي حضارتها ورغد عيش أهلها، مقابل جذب أرضهم وفقدهم وبدواهم، فضلاً عن الترغيب الفاطمي، فاشترأت الأعناق إلى الفردوس الموعود وصدق فيهم قول الشاعر :

وَمَنْ تَكُنْ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ — فَأَيُّ أَنْاسٍ بَادِيَةٍ تَرَانَا⁷

أوعد اليازوري هذه القبائل بالحسينيين الملك والتملك والخروج من الفاقة وضيق العيش إلى سعة الحياة المكفولة بالثراء والسلطان ، لقد أعطيتكم ملك المغرب وملك المعز بن بُلُكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقروا⁸ ، فزلت العرب بلدة برقة أولاً فوجدوها خالية من أهلها فاستوطنوها ، ومن هناك أبرقوا لأخوانهم في مصر يرغبونهم في اللحاق بهم ، فزحفت زُغبة إلى طرابلس فملكوها ، وسارت قبائل دياب وعوف وجميع بطون هلال إلى إفريقيا (القيروان)، فتحركت النخوة العصبية عند عرب الفتح وانحازوا إلى إخوانهم الأعراب ضد المعز، فاستنجد هو الآخر بعمه في المغرب الأوسط صاحب القلعة، وعلى الرغم من ذلك استباحته هذه الجحافل مدينة القيروان عاصمة المعز وعاثوا فيها فساداً بالسلب والنهب فأظلم نهارها وأفلت شمس قصور ملوكها وخربوا محاسنها وطمسوا معالمها المادية والأدبية وتفرق أهل المدينة العريقة في الفيافي والبلدان المجاورة .

ثم زاحم بنو سليم رياحاً الذين أفسدوا إفريقيا فساروا إلى الغرب (المغرب الأوسط) ما بين بونة(عنابة) وقسنطينة مطيحين بعرش بني حماد واكتسحوا القلعة عاصمة ملكه الروحية والأدبية ، انتقاماً لمناصرتة المعز ضدهم، فعاثوا في طنبه⁹ والمسيلة وما جاورهما فساداً ، تاركين البلاد قاعاً صفضاً أفقر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير¹⁰ ، ويرى البعض أن هذا التوصيف إجحاف في حق الأعراب لأن صاحبه لم يكن شاهداً على الأحداث ، فقد كان واقعاً تحت مؤثرات سياسية ووظيفية جعلته يتحامل على العرب وينعتهم بهذه النعوت¹¹ القبيحة، والتي نجدها متناصة مع توصيف الشاعر ابن شرف المعاش لهذه الوقائع ، نلفيه يقول في بكائيته على مدينته القيروان :

آه للقيروان أنه شجو — عن فؤاد بجاحم الفؤاد يصلى

حينَ عادت بها الديارُ قبورا — بل أقول الدارَ منهمْ أنحلى¹²

فرض هؤلاء الأعراب وجودهم بالقوة على قبيلة صنهاجة في المغريين الأدنى والأوسط واقتسموا بسائطها وأملاكها لا ملكها بينهم، فاستقرت قبائل رياح وزغبة والمعل والمقل وجشم وقرّة والأنبج والخلط في تونس وبنو هلال أو أغلبهم في الواحات الجزائرية والهضاب العليا بنواحي سطيف والمسيلة والعلمة وبريكة والجلفة وبوسعادة وتيارت¹³ ، وفي غيرها من الأصقاع .

يلاحظ أن الخراب الذي ألحقه هؤلاء الأعراب بالعمائر المغربية قبل استيطانها والاستقرار بها والذي تضاربت فيه آراء الأدباء والمؤرخين بين مبالغ ومنصف ، قد لا يعود إلى الفاطميين وحدهم في منظورنا بقدر ما يعود إلى الطبيعة البدوية التي جبل عليها هؤلاء الأعراب الذين اتخذوا الحراة سبيلاً لمعاشهم ، فمن بدا جفا ومن جفا اعتدى ، وقد يعود هذا التدمير إلى سوء تدبير صنهاجية في التعامل مع هذه السيول البشرية الجارفة ، فتلك طبيعة الشعوب المحرومة ، وما يحدث اليوم في تدفق الموجات البشرية على أوروبا إلا نموذجاً مكروراً ، ماذا كانت تفعل هذه الشعوب لو لم تجابه بسياسات حكيمة ؟! إذا كانت قد بلاد المغرب قد استقبلت هذا الحراك البشري في عهوده الأولى وهي طور التكوين الديموغرافي وكان ضررها على العمران بالمفهوم الخلدوني ثقيلًا حمل صداه أهل التاريخ والأدب واعتبرته بعض الأقلام ترجمانا للعقلية العربية الهمجية، أولاً تنطلي الفعلة الهلالية مع من سبقهم من إخوانهم في عبثهم بملك كسرى على الرغم من القيادة الرشيدة حينها ؟!، ومن وجهة أخرى ألم تعرف العدو الشمالية للمغرب (الأندلس) توافداً بشرياً مماثلاً وافداً من بيئة مشرقية أيضاً؟ لماذا لم يحدث هؤلاء خراباً ولا دماراً، على الرغم من حلولهم في بيئة لها معتقداتها وإيجاءاتها ومفاهيمها المغايرة تماماً

!؟، وعلى الرغم من ذلك عمروا العمائر وأنجزوا حضارة لا زالت معالمها ماثلة للأجيال، نسجها الأدباء في ترسلاتهم والشعراء في قصائدهم ونسخت في السجلات الحافظة للآثار الخالدة. وهل مرد ذلك إلى البيئة الحاضنة في بعديها الطبيعي والعربي، أم أنه ناموس الثنائية الضدية المشفوع بالصراع السرمدي المصطبغ بالصبغة الدينية الكفيل بالبقاء للأفضل فما أشبه اليوم بالبارحة فهل من متدبر في حركة التاريخ!

قصدت بعض القبائل العربية الأقاليم الجنوبية لملاءمة المناخ، فاتخذتها ملاذاً ومستقراً، ولتشابه قيم الحياة البدوية في هذه الأقاليم الصحراوية والتي كان عليها أهلها قبل قدوم بني هلال وأهمها الإقدام والشاهمة والكرم وحفظ العهد والصبر على شظف العيش وإكرام الضيف وهذه القيم قريبة من قيم البادية العربية ما يسر سبل التعايش السلمي والتمازج بين الجنسين البربري والعربي¹⁴، بفعل الاحتكاك والمصاهرة، فقد زوّج "المعز" صاحب القيروان إحدى بناته إلى زعيم بني هلال "مؤنس" منذ النجعة الأولى، فالظاهرة مألوفة في ثقافتنا العربية والإسلامية لاستلطاف القبائل المناوئة وكسب مودتها. المآثر الهلالية

التعريب والعوائد:

كان للهلاليين الفضل الأوفى في صقل اللسان البربري ونطق الحرف العربي سليماً من اللثغة أو اللكنة، لأن هؤلاء الأعراب كانوا أفصح الناس لغة وظلوا كذلك أجيالاً متعاقبة مما يدل على إصالة أرومتهم العربية من ناحية وقرب لهجتهم من اللغة الفصحى، فلذلك نجد عامية سكان الجنوب إلى اليوم أفصح من إخوانهم في الشمال وهي قريبة من اللغة الأم لتأثرهم هؤلاء الأعراب، نلفي بعض عبارتها قرآنية صميمة كقول أحدهم (بَتَكْه) بمعنى ثقب، فهي مأخوذة من قوله تعالى: (فَلْيَبْتَكَنْ عَاذَانَ الْأَنْعَمِ) سورة النساء الآية 119، والكلمة العربية في جنوبنا تنطق بكل حروفها، وهي أوضح من العامية في بعض البلدان العربية التي تدغم فيها الحروف مع تغيير الأصوات أحياناً فلا يفهمها إلا أهلها، مثل لبنان ومصر واليمن وحتى عند بعض أهل الحجاز، ولا يغيب علينا أنه لكل أمة لسانها الخاص في خطابها اليومي، وأن لسان هؤلاء الأعراب فصيح وقريب من لغة التخاطب اليوم.

نسوغ لأنفسنا القول بأن بلاد المغرب لم تأخذ سمتها العربي وتصبغ بصبغته نهائياً إلا بقدوم النجعة الهلالية بأعدادها الوفيرة التي يمكننا اعتبارها فتحاً ثانياً، لأنها حملت دماً عربياً إضافياً إلى هذه الربوع، وتناسلت ولأها للفاطمين، واندججت في الحياة الجديدة، بأعدادها المتعاقبة والوفيرة، إذ رواح توفيق المدني عددهم بين الثلاثمائة ألف والخمسمائة ألف¹⁵، ورفع محمد المليي العدد إلى المليون نسمة ونحن نرجح الأخير، استناداً لشاعرهم "علي بن رزق الرياح" في تقديره للذين حاربوا جيش المعز وانتصروا عليه بـ: ثلاثة آلاف مقاتل في قوله:

وإن ابن باديَسَ لأفضل مَالِكٍ — لعمرى، ولكنَّ مَا لَدَيْهِ رَجُلٌ

ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم — ثلاثة آلاف وذاك ظلال¹⁶

يُحصر الشاعر مقاتلي الأعراب في حرب القيروان بثلاثة آلاف فقط، فما قولنا في الباقي وعلى امتداد زمن التزوح! دفعت هذه الجموع لغة البربر إلى التراجع في المواطن التي استقر فيها الأعراب ونأت بنفسها إلى الأُنْجَاد المتضرسة والمنيعَة عن المؤثرات الخارجية، ساهم هؤلاء الأعراب في تعريب السكان ونشر لغتهم في المواطن التي حلوا بها فتعلمت اللسان العربي في حياتها من خلال المصاهرة والمعاملات اليومية، فلولا هذا الزحف الذي جاء في موجات تترى لبقيت اللغة العربية صعبة مستعصية على سكان المغرب استعصاءها على الشعوب الإسلامية الأخرى، التي حرمت من هجرة الشعوب

العربية إليها بهذه الكثافة ، ولولاها لبقى أبناء المغرب يتكلمون لغة الرطانة والعجم العاجزة عن أداء المعاني العربية وأسرارها¹⁷ ، ولصعب عليهم فهم القرآن الكريم والحديث النبوي والأدب العربي نثره وشعره واستجلاء صورته وتذوق معانيه بفضل الخصائص البلاغية للغة العربية ، فمن ذلك تحولت هذه الحملة الانتقامية إلى رسالة لغوية ثقافية أدبية واجتماعية من خلال التمازج بين الجنسيتين البربري والعربي ، وعلى الرغم من ذلك أثر الهلاليون في اللغة أكثر مما تأثروا بلغة غيرهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد أثرت لغة الهلاليين في لغة البربر وتشبع المجتمع المغربي بأخلاق العرب وعوائدهم الصالح منها والطالح ، وجرت الأمثال والحكم العربية على اللسان البربري¹⁸ وتمازجت الثقافتان وانصهرت في بوتقة واحدة ، فأضحى المجتمع المغربي شعباً واحداً في معظمه يجمعه دين واحد ما ثل في مذهب الإمام مالك ولغة واحدة وعوائد واحدة من طنجة إلى برقة ، ظل يتكلم اللغة العربية فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل بعد هذا الإنتيال العربي ، ومع تطور الزمن بدت العجمة على لسانه مع احتفاظ هذا المجتمع باللهجات المحلية المتنوعة التي أقرتها الدولة الحديثة في منظومتها القانونية ، ولا يزال الأمميون فضلاً عن أولي العلم والأدب — من البربر — يوظفون ألفاظاً عربية فصيحة في خطابهم اليومي وفي أمثالهم الشعبية المتداولة التي توارثوها عن الأعراب وتبلغ في بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة¹⁹ في الحواضر الكبرى، ولا يسعنا المقام للوقوف عليها كلها ، لأن ذلك يستدعي دراسة خاصة .

المآثر الأدبية

إذا كان للهلاليين تأثيراتهم الملموسة في البيئة الديمغرافية والثقافية في المغرب، فما هي تأثيراتهم في الحراك الأدبي، وكيف كان وضعه قبل وفادتهم؟ وهل نسوغ لأنفسنا المقولة أن الخراب كان مدعاة لنهضة ثقافية وأدبية في مغربنا القديم، ذلك ما نحاول الوقوف عليه في هذه الكلمات المتواضعة .

لم تكن بلاد المغرب قبل هذه النجعة أرض يباب بلا علم ولا أدب، بل كان لها جهازها الخاص والممثل في حواضرها العلمية والأدبية كالقرويين وطبنة وتلمسان وبجاية والقيروان التي أضحت تراحم بغداد وقرطبة وغيرها من الحواضر الأدبية، يأمها الطلاب وشيوخ العلم بكل ضروبه للقراءة والإقراء، فاكتملت الشخصية الأدبية للمغرب وبلغت نضجها، لاستقلاله بأدبائه وكتابه وشعرائه — ونقدهته — وفقهائه على اختلاف المذاهب والمشارب .

استقطبت بلاطات ملوك المغرب الأدباء والشعراء للتباري في فن القول نظمه ونثره، فكانت القيروان أيام عزها في طليعة الحواضر الثقافية الكبرى، مثلت العاصمة الأدبية والفكرية للمغرب الإسلامي، تشد إليها الرحال من كل الأصقاع، لعناية سلطاتها المعز بأهل العلم والأدب، فكان يؤم بلاطه ما يربو على المائة شاعر، فضلاً عن الكتاب والنقاد ممن لم يبرزوا موهبة الشعر²⁰ لشغفه بهذا الفن ولشدة اهتمامه بالعلماء والأدباء، فكان يلذه أن يلتف حوله الأدباء والشعراء وأن يجمعهم في حضرته في مجالسه العلمية والأدبية ويتولى قدح روح المنافسة بين الشعراء ، لينعم بتلك المساجلات الأدبية والمناظرات القولية ، ولا يفعل ذلك إلا عالم بالشعر وأصوله متذوق لفنونه ، فعرفت القيروان في هذا العهد ومن ورائها بلاد المغرب أزهى عصورها الأدبية ، فأضحت لا تقل شأنًا عن نظيرتيها الأندلس وبغداد ، لذلك عدَّ القرن الخامس الهجري العصر الذهبي للأدب المغربي في هذا الصقع قبل النجعة الهلالية .

وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول أن استقرار الأعراب ساهم في إعادة بناء المغرب ديموغرافياً وثقافياً وأدبياً وفق وضعه الجديد ، فانتشرت السيرة الهلالية في الأدب الشفهي وذاع صيتها في الأوساط الشعبية ، فأضحت قصصها متداولة يرددنها

القوالين والمداحين أجيالا متوالية في الجلسات اللاهية في المسرات والأفراح في المقاهي وحارات المداشر والأسواق الشعبية لدلائلها على مناقب الأعراب في مغازيهم وأفعالهم العجيبة ، إنه التعاطف الصادق بين التراث والمتلقي الذي يروم إلى إنزال نفسه منزلة البطل داخل مجتمع القبيلة من خلال إثبات الذات في الماضي الذي يوحي بأنه لا يمضي بأي حال من الأحوال ، إنه دائما في البارحة التي لا تبارح أو لا تتحول أو لا تزول²¹ بزوال الأزمان والأجيال ، إنه مائل في الأذهان على الرغم من تقلبات الأحوال ، وبقدر ما كانت هذه السيرة عملا تسجيليا للأحداث في ترابطها وتفاعلها وعبرها من زمن إلى زمن ، من أجل تلبية الحاجة التاريخية والجمالية للإنسان العربي في رحلته من أجل العيش والبقاء ، وانتقالها بعد ذلك إلى وظيفة تفسيرية تعليلية لهذه الأحداث في ربط العلل بمسبباتها ، فإنها تسعى كذلك إلى اختراق الذات الإنسانية لمعرفة قواها المحركة وتحليلها ، كي تقيس درجة شحنها وقوتها وتأثيرها في محيطها²² الثقافي والأدبي .

ظلت السيرة الهلالية مجسدة في الملاحم وأدب السير العربية ، إذ تحتضن قرية الباكدوش شمال مصر أكبر مجموعة من شعراء السيرة الهلالية ورواتها في العالم العربي كله²³ ما يدل على أهمية السير الشعبية في الثقافة العربية وآدابها لكونها تمثل حلقة وصل بين الماضي والحاضر في السلم الاجتماعي فهي خالقة للأحداث وموجهة للمصائر ، لأنها حملت كما محكياً بعضه سارد للحدث ومحاكٍ له في بعده الواقعي ، أو طعم بإضافات من نسيج الخيال ظل محفوظاً في الذاكرة العربية باعتباره ضرباً من الأدب الشفهي²⁴ وملحمة من ملاحمه البطولية التي امتزجت فيها اللوعة بالروعة في بعديها الثقافي والأدبي ، كسيرة ذياب وغانم والجازية ، ومما زاد هذه الشخص علقاً وتأثيراً في ذهن المتلقي أنها ليست أسطورية أو من نسج الخيال ، بل هي مستمدة من الواقع المادي الحي لهذه السيرة ، فربطت الماضي بالحاضر في دروبه الثقافية والأدبية ، فهي لا تقل شأنًا في أدب السير ، عن سيرة سيف بن ذي يزن أو الظاهر بيبرس أو وألف ليلة وليلة وغيرها ، وعلى الرغم من ذلك لم تلق الإهتمام ذاته من الباحثين في منظورنا .

إذا كانت هذه السيرة توارت في بعدها التاريخي ، فإن جذورها لا زالت ضاربة بعمقها في الثقافة العربية وآدابها ، من خلال شخصيتها التي نسجت في مخيال الذاكرة الشعبية وفي مضامين اللا شعور الجمعي العربي ، بتحول أبطالها إلى رموز أسطورية ، فصورة الجازية في المخيال الشعبي العربي امرأة بديعة الجمال خارقة الذكاء ، مما جعل صورتها قد تختلط أحيانا بصورة بطلات الحكاية الخرافية مثل أميرة الجن في صفة الجمال ... ، غير أنها تظل متميزة تميز شخصية الأدب الملحمي النابع من ثقافة المجتمع القبلي الرعوي عن شخصية الحكاية الخرافية الصادرة عن المراحل الأولى من تكون الجماعة البشرية²⁵ والتي تظل من أهم الحكايات الثقافية في الأدب الشعبي .

احتفظت الذاكرة الشعبية بأعلام السير الهلالية باعتبارها معلماً من معالم التراث العربي القديم الحافل بالحروب والصراعات التي خاضها من أجل العيش وفرض الذات الخالدة مثلت الجازية المرأة الرمز في هذه السيرة ، قصدت فيها القصائد الشعبية التي صدحت ولا زالت تصدح بها الحناجر الفنية مغرباً ومشرقاً ، ووجد الكتاب في سيرتها ضالتههم الأدبية لكونها نبعاً من منابع التراث الثقافي والأدبي الذي لا ينضب وملهماً فياضاً لمخيلتهم الإبداعية ، وقد يكون تأثر الأديب بالتراث الشعبي تأثراً عفويًا ، لأن هذا التراث يمثل مكوناً من مكوناته الثقافية ولا بد أن يظهر في إبداعه ، وقد يكون تأثراً مقصوداً سعى إليه الأديب بإصرار عن طريق دراسة أشكال التعبير الشعبي في صوره الفنية ومضامينه التعبيرية ، وقد استثمر عبد الحميد بن هدوقة هذا التراث في روايته الموسومة بـ : "الجازية والدراويش" التي أنجزها سنة 1983 ، إذ شكلت الجازية الشخصية المحورية في هذا العمل الفني لتفردا بجمالها وجاهاها ، إنها جمال إلهي يفوق كل المستويات البشرية²⁶ ، فاتخذها

الكاتب رمزاً للمرأة العربية الجريئة المتميزة بمواقفها البطولية في قومها والتي تضحي بنعومة حياتها من أجل عشيرتها ، فأسقطها بكل حملتها على المرأة الجزائرية التي حملت لواء البناء والتشييد بكل معانيه بعد استرجاع السيادة الوطنية . والملاحظ أن أبطال السيرة الهلالية ليسوا أبطالاً فحسب، بل هم شعراء أيضاً، غير أن الكثير من شعرهم دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم، وضبط لأسماء رجالهم وكثير من أحوالهم لكننا لا نثق بروايتها²⁷ في المنظور الخلدوني .

يمكننا القول أنه على الرغم من المضار المادية التي لحقت الحواضر المغربية الكبرى من جراء هذه النجعة، كالقيروان وغيرها ، التي عطلت مجالسها الأدبية والعلمية وتفرقت وجهاتها فقهاء وأدباء وشعراء شذر مذر تاركين الأهل والأحباب ، نازلين في ديار الاغتراب ، ولواعجهم تتحرق شوقاً وألماً على أوطانهم ، ونفوسهم ترنو إلى ماضيهم المجيد ، إلا أننا نغفل ما لهذا النجعة الهلالية من مآثر حميدة من عدة وجوه ، غير الهلاليون ملامح المجتمع المغرب القديم في ثقافته وحضارته ، لما صاحبهم من عديد العلماء ورجالات الأدب والشعر ففيهم صاحب الذوق الصحيح والطبع السليم ، فضلاً عن الخطباء وحفظة كتاب الله عز وجل ، كان لهؤلاء وغيرهم باع في إغناء المشهد الأدبي وقدر زناد الأدبية والشعرية في هذه الديار ، لأنهم من أصول مضرية المشهود لها بالشموخ في اللغة العربية وآدابها على بقية القبائل ، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى الذكر الحكيم بلسانهم ، فكان لهؤلاء الفضل في تغيير وجه الحياة الأدبية والفكرية إلى الأحسن .

أفجع الهلاليون عامة الناس وخواصهم في أوطانهم، فبكى الشعراء مجدهم الضائع بقصائد طوال كلها شوق وحنين وندب على ما لحق حواضرهم من تدمير وتخريب، كيف لا يبكي شاعر مفجوع في أمته وفي عرش ولي نعمته؟ قد نعد هذه المراثيات من نفائس الرثاء العربي في تصويرها لهول الكارثة الذي لم بالأمة المغربية، فكانت معاناة الشعراء في هذا المصاب ذاتية، لمعائنتهم الفاجعة بكل ضروها، فجاءت تعبيراتهم صادقة لشدة حزنهم على واقعهم الأليم الذي عايشوه فعلياً، فكان بكاءهم لأوطانهم بكاء لنفوسهم، فمن ذلك لم تكن هذه النكبة نكسة على الشعر العربي، بل زادته ازدهاراً وتطوراً، إذا اعتبرنا أن الشعر لا يزدهر ويتطور إلا على أسنة الرماح وحوافر الخيول ، وفق هذه الرؤية يمكننا الجزم أن الاجتياح الهلالي لبلاد المغرب كان وراء تنشيط الحركة الأدبية والشعرية وإذكاء روح الابتكار والإبداع الذي تجسد في التعبير الصادق عن مشاعر الحزن والألم الذي غمر نفسية الشعراء لا بسبب ما تراءى أمامهم من فواجع ومواجه، بل أيضاً بسبب النأي عن الوطن الجريح بكل حمولته المادية والنفسية، ومن الشعراء القيروانيين الذين تحرقت لواعجهم على ما لحق بلداًهم، ابن شرف، والحصري وابن رشيق وغيرهم ، وقد نقف مع الأخير في بكائيته على مدينته (القيروان) والتي نجتزئ بعضها ، نلفيه يصور حالها قبل المحجمة الأعرابية المشحونة بالحقد الفاطمي يقول :

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامٍ سَادَةٍ — بِيضِ الْوُجُوهِ شَوَاخِ الْإِيمَانِ
كَانَتْ تَعْدُ الْقَيْرَوَانُ بِهِمْ إِذَا — عُدَّ الْمَنَابِرُ زَهْرَةَ الْبُلْدَانِ
وَزَهَتْ عَلَى مِصْرٍ وَحَقَّ لَهَا كَمَا — تَزْهُو بِهِمْ وَغَدَتْ عَلَى بَغْدَانِ
حُسْنَتْ فَلَمَّا أَنْ تَكَامَلَ حُسْنُهَا — وَسَمَا إِلَيْهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانَ

بنى الشاعر قصيدته على ثنائية الآل والمآل الماضي والحاضر في تصويره لحال القيروان قبل قدوم الإعراب إليها ، فقد كانت معتدة بنفسها على الحواضر العلمية العتيدة كبغداد والقاهرة ، باعتبارها أول حاضرة تأسست في الإسلام سنة 50 هـ ، على يد عقبة بن نافع ، وتدرجت في مدارج الرقي والسؤدد، إذ بلغ الأدب المغربي عصره الذهبي في الفترة الصنهاجية ،

فكانت محطة أنظار أهل العلم والأدب تشد إليها الرحال من كل فج لما يروونه من إقبال أولي الأمر على العلم والأدب وعنايتهم بأهله ، وبنفس مكلومة يكشف الشاعر عما آل إليه وضع القيروان بعد النجعة الهلالية ، على غرار بقية بلدان المغرب التي لحقها شررهم وتفجعت من ضررهم ، فشاعرنا عايش الأحداث الماقبلية والمابعدية التي باتت متضادة في قصيدته ، وتشتمل هذه الترسمة لتوضيحها .

عمران ————— خراب

أمن ————— خوف

توحد ————— تشرذم

كرامة ————— هوان

يصور ابن رشيق كغيره من شعراء القيروان ما لحق بلاده بنفس جريحة وصدق عاطفة، التي قد تتخذها شهادة حية على ما لحق ذويه من لؤم الأعراب باعتبار النص الأدبي وثيقة تاريخية ناطقة تصور لنا ما كانت عليه المدينة قبل خرابها وما آلت إليه وما حل بقاطنيها، بعد حصار دام أربع سنوات ثم اقتحموها عام 449 هـ / 1057 م، فلم يراع الأعراب إلا ولا ذمة في صغير ولا كبير بغض النظر عن جنسه أو سنه، يَمَمُوا رملوا سلبوا نهبوا اغتصبوا، إنها سنة الحروب !

أرجع الشاعر القيرواني هذا الوضع الإنساني إلى الطائفية المذهبية الرعناء التي فرقت المسلمين على أنفسهم فأحل بعضهم دم بعض ، ألم ينأ الفاطميون الروافض بالنفس ، وسخروا فريقاً ضد آخر فأمدوه بالمال ورغبوه في الملك وما أتت عليه اليد ؟! ، وجعلوها حرباً بالوكالة بالمفهوم المعاصر، فحصرُوا الاقتتال بين أبناء الأرومة الواحدة ، تأميناً لحدودهم الشرقية بإضعاف أو محو صنهاجة المناوئة لمذهبهم كي لا تنغص عليهم تواجدهم في المشرق بالمضايقة أو الملاحقة ، خاصة وأن سكان المغرب نبذوا تواجد الروافض سياسياً وروحياً ، وعزفوا عن صلاة الجمعة مدة زمنية غير قصيرة مناصرة للشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما اللذين كانا عرضة للقفز والطعن في سيرتهما من أئمة الفاطميين ، يقول ابن رشيق :

فتكوا بأمة أحمدٍ أترأهم — أمنوا عقابَ الله في رمضان

فَا سَتَحْسُنُوا غَدَرَ الجوارِ وآثَرُوا — سَبِيَّ الحريمِ وكشفَةَ النسوانِ

والمسلمونَ مقسَّمونَ تنالهم — أيدي العَصاةِ بذلةٍ وهوانِ

والمَسْجِدُ المَعْمُورُ جَامِعُ عُقْبَةٍ — خَرَبُ المعاطنِ مُظْلِمُ الأَرْكَانِ

قَفَرٌ فَمَا تَغْشَاهُ بَعْدُ جَمَاعَةٌ — لصلاةِ خمسٍ لا ولا لأَ دَانِ

زلزل الفاطميون بيد الأعراب عرش المعز وتواري إلى غير رجعة ، إذ قضى بقية حياته مذموماً مدحوراً بائساً إلى أن توفي سنة 454 هـ ، وانفرط عقد مجالسه الأدبية التي كانت زينة عرشه وتشرذ الأدباء والشعراء في الأمصار المجاورة ، غير أن الظاهرة الأدبية قد توجد بوجود حاكم أو ملك ، إلا أنها لا تنتهي بانتهائه ولا تفنى بفنائه²⁸ ، فهي كالشجرة الخضراء تورق وتثمر وتتجدد في كل حين وآن ، وفي كل الأحوال يمكننا القول أن الزحف الهلالي شكل تحولاً هاماً في بلاد المغرب ، فكان الإكسير الذي نشط الحياة الثقافية والأدبية ، لما ترتب عليه من تغيير في عنصر السكان بحيث تحول الجزء الأكبر منهم إلى عرب ومسلمين ، حيث أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان المحلي تدريجياً وسارت عملية الدمج والمزج سبغاً للاحتكاك اليومي ، فاستعرب البربر وتبربر العرب وتوغلت اللغة العربية في البوادي وسكان المناطق

النائية لانتشار العرب الهلالية في جميع أنحاء المغرب وشاعت لغتهم بين أهاليه فاستعربت من جراء ذلك معظم قبائل شمال بلاد المغرب بشكل شبه تام .

الهلاليون في الجيوش المغربية .

عززت هذه المحركات التي تواردت في أمواج بشرية متعاقبة على المغرب، الانتماء الحضاري والثقافي لهذه البلاد فصهرت السابق باللاحق في أرومة واحدة، فاستماهم الخليفة الأندلسي عبد المؤمن بن علي إلى نفسه بعد أن تأكد من ولائهم فجعلهم في حشيه واصطفى بعضهم لـ: حماية نفسه وأسرته التي في جنوب المغرب الأقصى بمدينة مراكش، حيث عدّهم من أبناء عمومته وحرّضهم على قتال النصارى والدخول معه إلى الأندلس مادحاً إياهم بقوله:²⁹

وَقَوْمُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةً ثَائِرَةً — وَشَدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةً صَائِلَةً
بَنِي الْعَمِّ مِنْ عَلِيٍّ هِلَالِ بْنِ عَامِرٍ — وَمَا جَمَعْتَ مِنْ بَاسِلٍ وَأَبْنِ بَاسِلٍ
تَعَالَوْا فَقَدْ شَدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةٌ؟ — عَوَاقِبُهَا مَنصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ

وهكذا تحول الهلاليون بهذه الصفات من معول هدم وتخريب إلى بناء لسان وثقافة وفكر وأدب وتشديد لمعالم عمرانية وحضارية .

إنشاء مدينة بجاية :

يعود الفضل في إنشاء مدينة بجاية إلى القبائل الهلالية، وذلك بعدما فشل الناصر بن علناس رابع أمراء دولة بني حماد في كسر شوكتهم في المغرب الأوسط، ووجد نفسه مهدداً من غاراتهم لسهولة الوصول إليه في قلعته، فكر في اختيار موقع يتحصن به من مطاردته، فاخطت مدينة بجاية (407هـ / 1076م) على الشريط الساحلي للبحر المتوسط، ليتحصن بسلطانه ويدراً عنه خطر الدخلاء .

نقل إليها المنصور بن الناصر عاصمة ملكه وكان أديباً كاتباً وشاعراً ومن ذلك الحين صارت بجاية من أهم مدن المغرب الأوسط ، فكانت منارة علم ومركز إشعاع حضاري يقصدها الطلاب والعلماء من الشرق والغرب ، لما توفرت عليه من مدارس ومعاهد علمية فأمها كثير من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم [...] ، ولقد بلغ إقبال الناس على العلم يومئذ ، أنه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف عن مائة طالب ولا فرق في ذلك بين مسلم وغيره ، فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب³⁰ ، تأدية لأمانته العلمية .

توسعت نخضة بجاية الفكرية والأدبية بمفعول هذه الحركة العلمية، ولم تزل في تطور وتوسع حتى بلغت ذروة مجدها أيام الموحدين، إذ يترجم الشاعر حسن بن الفكون القسنطيني ذلك في هذه الأبيات :

دَعِ الْعِرَاقَ وَبَغْدَادَ وَشَامَهُمَا — فَالِنَا صِرِيَّةً مَا إِنْ مِثْلُهَا بَلَدُ
بَرْ وَبَحْرٌ وَمَوْجٌ لِلْعُيُونِ بِهِ — مَسَارِحُ بَانَ عَنْهَا الْهَمُّ وَالْتِكَدُ
يَا طَالِباً وَصَفَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصْفٍ — قُلْ جَنَّةُ الْخُلْدِ فِيهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ³¹

إذا كانت مدينة بجاية بلغت هذه الدرجة من الرقي والازدهار وأضحت قبلة النظر والأدباء عند ابن الفكون، فمرد ذلك إلى الهلاليين الذين كانوا سبباً مباشراً في إنشائها، فأضحت لا تقل شأناً بقية الحواضر المغربية والعربية .

وأخيراً وليس ختاماً، لأن الموضوع في منظورنا أوسع وأعمق من أن تكفيه بعض الصفحات، فهو يستحق رسائل جامعية لا ستعاب أطرافه المتشعبة، لأن هذه النجعة امتدت على خمسة عقود متوالية، فكانت بمثابة فتح ثان للمغرب العربي أصلت

أرومته العربية والإسلامية، وغيّرت بنيته الديمغرافيا كلية، فلا جرم أنّها أعادت هيكلته ثقافياً واجتماعياً وحضارياً وصقلت لسانه على الحرف العربي القح، وما نجم عنه في بنائه المعرفي بمختلف أضربه ...

الإحالات والهوامش :

1 ففي مدينة فاطمية بامتياز، لا تبعد كثيراً عن القيروان، أنشأها عبد الله الشيعي الملقب بالمهدي سنة 303 هـ، سماها باسمه، ظلت المهديّة على مدى قرنين ونصف مركز إشعاع أدبي وثقافي، ولكثرة شعرائها أفرد لها ابن رشيق مؤلفاً أسماه الروضة الموسّية في شعراء المهديّة، ينظر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ط، 2015 .

2 ابن هانئ الأندلسي: الديوان، شرح أنطوان نعيم، بيروت، 1996، ص 91، 92 .

3 ابن خلدون: تاريخ العبر، بيروت، 11 / 1983، ص 31 .

4 نفسه ص 255 .

5 يراجع التوزيع الجغرافي للهلالين في المغرب العربي، توفيق المدني، كتاب الجزائر، محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 2 .

6 ابن خلدون: نفسه، 6 / 12 .

7 القطامي التغلبي P65 :

8 ابن خلدون، 11 / 31 .

9 طنبّة: مدينة مندثرة في الشرق الجزائري، قامت على إثرها مدينة بركة قرب عنابة، كانت عاصمة إقليم الزاب في دولة الأغالبة، ومركزاً علمياً لدراسة اللغة العربية وعلومها التي تؤهل لدراسة علوم القرآن والسنة والفروع الفقهية وما يتعلق بها من نظر وجدل، ومورداً لطلاب العلم والأدب في أيام الأغابة وإمارة بني حمدون، ينظر أحمد أبو رزق، الأدب في دولة بني حماد .

10 ابن خلدون: 11 / 43 .

11 عبد الفتاح مقلد الغنيمي: موسوعة المغرب العربي، م 2، القاهرة، 1994، ص 247 .

12 ابن بسام: الذخيرة، م 1، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د، تـ ص 227 .

13 ابن خلدون: 11 / 45، 131 .

14 طاهر قيقّة " بنو هلال سيرتهم وتاريخهم، ص 111 .

15 توفيق المدني: كتاب الجزائر، الجزائر، د، ت، ص 138 .

16 نفسه، ص 137 .

17 طاهر أحمد الزواوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، ط 4، 2004، ص 299 .

18 للمزيد ينظر، عبد الحميد بورايو، قصص السيرة الهلالية تحولات نوع أدبي، بنو هلال

سيرتهم وتاريخهم، ملتقى دولي الجزائر، ماي 1990 .

19 شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، دار المعارف، مصر، 1995، ص 114 .

20 عبد العزيز قلقيلة: البلاط الأدبي للمعز بن باديس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، ص 53 .

21 أحمد علي آل مربع: المصطلح والتأويل، مجلة علامات، ج 65، مايو 2008، ص 41 .

22 عبد القادر مزاري: رواية الجازية والدرواوبش، مخطوط رسالة دكتوراه جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2010، 2011، ص 53 .

23 رينالد: بين النص والسياق في أداء سيرة بني هلال، (بنو هلال سيرتهم وتاريخهم) ص 99 .

24 عبد القادر مزاري: ص 81 .

- 25 عبد الحميد بورايو: منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، 1994، ص 119 .
- 26 الرواية ص 140 .
- 27 ابن خلدون: 40 / 11 .
- 28 عبد العزيز قلقيلة: 55 .
- 29 عبد الملك بن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، تح، عبد الهادي التازي، بيروت، 1964، ص 112 .
- 30 محمد طمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الجزائر، د، ت، 142، 143 .
- 31 الغريبي أحمد أبو العباس: عنوان الدراية، ص 3 .